مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (4)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (4) 2014

كتاب سيبويه في دائرة ضوء علم اللّغة الحديث
2- المستوى الصّوتيّ

الدكتور يونس علي يونس*

(تاريخ الإيداع 26 / 5 / 2014. قبل للنشر في 23 / 7 / 2014)

□ ملخّص □

يُسلط هذا البحث الضوء على دراسة الصّوت في كتاب سيبويه وفق مناهج علم اللّغة الحديث، ويبيّن أنّ سيبويه أدرك أهميّة النظام الصّوتيّ، وكان على وعيّ تامّ بأنّ دراسة الأصّوات مقدمة لا بدّ منها لدراسة اللّغة، وتبيّن أيضاً أنّه قد تناول بالوصف (الصّوت المنطوق)، فبيّن عدده، وحدد مخرج الصّوت وما يصاحبه من حركات أعضاء النطق.

وقسم سيبويه الأصّوات العربيّة اعتماداً على تحكم جهاز النطق بالهواء الخارج من الفم إلى أصوات (صامتة) وأصوات (المدّ واللين).

ويدرس البحث التماثل الصّوتي في كتاب سيبويه (التماثل بين الصّوامت: التماثل المقبل،والإبدال)، و(التماثل الكامل– الإدّغام–: إدّغام المثلين، إدّغام المتقاربين)، و(التماثل المقبل، التماثل المدبر)، و(والتماثل الصّوتي والإمالة)، و(التماثل الصّوتي والإتباع).

كما يدرس التخالف الصّوتي في كتاب سيبويه: (التخالف الصّوتيّ والدّلالة)، و(التخالف الصّوتيّ والحذف)، و(التخالف الصّوتيّ والتّخفيف).

الكلمات المفتاحيّة: سيبويه، المستوى الصّوتيّ، التماثل المقبل، التماثل المدبر، التخالف، الإبدال، الحذف، التخفيف.

*أستاذ مساعد– قسم اللّغة العربيّة– كلية الآداب– جامعة تشرين– اللاذقيّة– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (4)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (4) 2014

Book Sibawayh in the circle of light modern linguistics 2 - level voice

Dr. Yunus Ali Younes*

(Received 26 / 5 / 2014. Accepted 23 / 7 / 2014)

□ ABSTRACT □

Highlights this search light on the study of sound in the book Sibawayh according curricula modern linguistics , turned out to us that Sibawayh realized the importance of the audio system , and was fully aware that the study sounds introduction is a must to study the language , and also shows that he has dealt with the description (sound operative) , Between numbering , and select audio and accompanying movements of the members of the pronunciation.

The department Sibawayh Arab voices depending on the pronunciation control outside air from the mouth to the voices of (silent) and sounds (tide and soft) .

Then we studied the symmetry voice in the book Sibawayh (symmetry between the consonants : symmetry next , and substitution) , and (symmetry full - slurring - diphthong doubled , diphthong Close together) , and (symmetry next , symmetry mastermind) , and (symmetry voice and tilt) , and (symmetry voice and followers).And studied voice offset in the book Sibawayh : (offset voice and semantics) , and (offset voice and deletions) , and (offset voice and mitigation).

Keywords: Sibawayh , level voice , the next symmetry , symmetry mastermind , offset , substitution , deletion, mitigation.

***Assistant Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts, University of Tishreen, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

تُعدّ اللّغة نسقاً مِن الأصوات المتتابعة بانتظام، وبذلك فإنّ الأصوات اللّغويّة تشكل مادة للوصف في إطارمنهج علمي صحيح يتناول أصوات اللّغة بالوصّف والتّحليل، ويُميّز علماء الصّوت في المنهج الصّوتي بين فرعين رئيسين، أحدهما (علم الصّوت phonctics) " وهو العلم الّذي يُعنى بوصف مخارج الأصّوات، وبيان صفات الأصّوات من حيث الجهر، والهمس، والشدّة والرخاوة، والتفخيم، والترقيق وغيرها من الصّفات، الّتي تتعلق بأصّوات اللّغة"[1]، والآخر (علم التشكيل الصّوتي phonology)،" الّذي يركز على وظيفة الصّوت اللّغويّ في السّياق،من حيث علاقة الأصّوات بعضها ببعض عند اجتماعها في نسق صوتي منظم لتكوين الكلمات، وما ينتج عن تلك التعاملات الصّوتيّة من ظواهر كالإعلال، والإبدال، والحذف، والمماثلة والمخالفة، وغيرها"[2]، أيّ بيان الاستعمال الخاص بالأصّوات في اللّغة، ولكلّ لغة خصوصيتها في كيفية تركيب الأصّوات وتعاملها داخل بنية الكلمة.

وقد تنبه علماء اللّغة ومنهم سيبويه إلى أهمية الصّوت اللّغويّ، وعرفوا أنّ اللّغة" لا يُمكن أنْ يُفهم نحوها وصرفها فهماً صحيحاً إلا بعد دراسة أصواتها"[3]،ويؤكد مؤرخو علم اللّغة صراحة أهمية الدراسات الصّوتيّة، يقول (كانتينو):" لقدكان قدماء النّحاة العرب أوّل علماء الأصوات في لغتهم"[4]،ويذهب بعضهم إلى بيان أثر الدراسات الصّوتيّة العربيّة في مناهج دراسة الصّوت اللّغويّ عند الغرب، يقول جورج مونين:" يستحيل علينا أنْ نتجاهل علم الصّوت عند العرب، فندرس أوّلاً أصوله ثمّ انتشاره في أواسط الثقافة العبرانية إلى ما بعد القرن السادس عشر،وما أحدثه من أثر في الغرب من ناحية التفكير الصّوتيّ"[5].

إنّ الاعتراف بأهميّة البحث الصّوتي العربي، وتوكيد علميته، وتأثيره في البحث الصّوتي الغربي، يعني أصالة المنهج، الّذي سار عليه علماء العربيّة، ذلك المنهج الّذي يقترب كثيراً من المناهج العلميّة الحديثة على الرغم من افتقارهم إلى الأجهزة الصّوتيّة الحديثة، الّتي يستعين بها الباحث في دقة نتائج بحوثه.

أهمية البحث وأهدافه:

يهدف البحث إلى تقديم دراسة المستوى الصّوتيّ في كتاب سيبويه، وفق مناهج علم اللّغة الحديث، وأمّا أهميته فتكمن في إبراز الجهد الّذي قدّمه سيبويه قبل أكثر من ألف عام، إذ تبيّن أنّ ما قدّمه من آراء وأفكار تتعلق بدراسة اللّغة تنسجم وتتوافق إلى حدٍّ كبير مع مناهج علم اللّغة الحديث، حيث درس الصّوت العربيّ المنطوق، وبيّن عدده، وحدّد مخرج الصّوت وما يصاحبه من حركات أعضاء النطق، معتمداً على ملاحظته في تحكم النطق بالهواء الخارج من الفم، وبيّن الصّوامت، ومنها، التماثل المقبل والإبدال، والتماثل الكامل (الإدّغام): إدّغام المثلين – إدّغام المتقاربين – التماثل المقبل – التماثل المدبر – التماثل الصّوتي والإمالة – والتماثل الصّوتي والإتباع، وثم التخالف الصّوتي بأنواعه: التخالف الصّوتيّ والإبدال– والتخالف الصّوتيّ والحذف – والتخالف الصّوتيّ والتّخفيف.

---

[1]– ينظر مناهج البحث في اللغة العربيّة،ص65،د.تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء،1979م. وأضواء على الدراسات اللّغوية المعاصرة، ص258، د.نايف خرما، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،1978م.

[2]–يُنظر اللغة بين المعيارية والوصّفيّة،ص119،تمام حسان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1976م.

[3]–السابق، ص168.

[4]–دروس في علم أصوات العربيّة،ص118،ت:(جان كانتينو)،تر:صالحالقرماويّ، مركز الدراسات والبحوث،تونس،1966م.

[5]– تاريخ علم اللّغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين،ص205، جورج مونين،ت: بدر الدين قاسم، مطبعةدمشق(1972م).

دراسة الصّوت في كتاب سيبويه:

تُعدّ الأصوات" اللّبنات الّتي تشكل اللّغة أو المادة الخام، الّتي تبنى منها الكلمات والعبارات، فما اللّغة إلا سلسلة من الأصوات المتتابعة"[6]، وقد أدرك سيبويه أهمية النظام الصّوتي،" وكان على وعي تام بأنّ دراسة الأصوات مقدمة لا بدّ منها لدراسة اللّغة"[7]، لذلك تناول بالوصف الصّوت المنطوق فبيّن عدده، وحدّد مخرج الصّوت وما يصاحبه من حركات أعضاء النطق، لأنّ غرض الباحث في علم الصّوت، هو أنْ يُبيّن ما في نطق الصّوت من حركات عضويّة، وفي ضوء هذه الحركات يتم تحديد الصّوت المنطوق[8]، ويُعد بيان عدد أصوات اللّغة وتحديد مخارجها وصفاتها والتمييز بين طبيعة نظامها داخل بنيّة الكلام عملاً وصفياً، وبيّن سيبويه في دراسته للأصوات في (باب الإدغام) أنّ الحروف العربيّة الأصول يبلغ عددها تسعة وعشرين حرفاً[9].

وذكر سيبويه أنّ العرب نطقت حروفاً هي فروع من الحروف الأصول التسعة والعشرين، وهذه الحروف الفروع " يُؤخذ بها وتُسْتَحْسَن في قراءة القرآن والأشعار، وهي: النون الخفيفة، والهمزة الّتي بَيْنَ بَيْنَ، والألف الّتي تُمال إمالةً شديدة، والشين الّتي كالجيم، والصّاد الّتي تكون كالزاي، وألف التفخيم، يعني بلغة أهل الحجاز في قولهم: الصّلاة والزّكاة والحياة"[10] وإنّ استعمال سيبويه لمصطلح (الحروف) بدلاً من (الأصّوات) لا يعني أنّه لم يكن يَفْرُق بين اصطلاحي الحرف والصّوت كما يرى الدكتور تمام حسان[11]، إذ إنّ ما ذكره سيبويه من فرق بين الحروف الأصول والفروع، يدلّ على معرفة تامة بما يعنيه كلّ من الحرف والصّوت.[12]

ويذكر إلى جانب ذلك ثمانيّة حروف أُخَر ويصفها بأنّها غير مستحسنة، ولا كثيرة في لغة من تُرْتَضى عربيته، ولا تُستحسن في قراءة القرآن ولا الشعر،[13] وهي" الكاف الّتي بين الجّيم والكاف، والجّيم الّتي كالكاف، والجّيم الّتي كالشّين، والضّاد الضّعيفة، والصّاد التي كالسّين، والطّاء الّتي كالتّاء، والظّاء الّتي كالثّاء، والباء الّتي كالفاء"[14].

وقسم سيبويه الأصّوات العربيّة اعتماداً على تحكم جهاز النطق بالهواء الخارج من الفم، إلى أصوات (صامتة) وهي الّتي تنشأ من جراء مصادفة الهواء عائقاً في مواضع من المواضع يعوقه عن مرور الهواء مروراً حراً إلى خارج الفم، وأصوات(المدّ أو اللين)، وهي (الألف والواو، والياء)، قال سيبويه:" حُروف اللّين هي حُروف المدّ الّتي يُمدّ بها الصّوت، وتلك الحروف: الألف، والواو، والياء"[15]، ولَهُنّ أصوات أقصر منها وهي حروف المدّ القصيرة: (الفتحة، والكسرة، والضّمة)، وقد وصفها سيبويه بأنّها أجزاء من حروف المدّ الطويلة، قال: "الفتحة من الألف، والكسرة من الياء، والضمة من الواو"[16]، وقد وصف مخرج هذه الطائفة من الأصّوات بالسعة وبعدم وجود حائل يقف في

---

[6]– دراسة الصّوت اللّغويّ،ص347،د أحمد مختار عمر، مطابع سجل العرب،ط1، 1976م.

[7]–اللّغة العربيّة معناها ومبناهاص51،د: تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1973م.

[8]– ينظر: اللّغة بين المعياريّة والوصفيّة،119.

[9]–ينظر: الكتاب، 4/433–434،

[10]– يُنظر: الكتاب، 4/432.

[11]– يُنظر: اللّغة العربيّة معناها ومبناها،ص57.

[12]– يُنظر: الكتاب، 4/434–446.

[13]الكتاب، 4/434.

[14]– السابق، نفسه.

[15]–السابق،4/426.

[16]– السابق،242.

طريقها، يقول:" وهذه الحروف غير مهموسات ... ومخارجها متسعة لهواء الصّوت، وليس من الحروف أوسع مخارج منها ولا أمدّ للصّوت، فإذا وقفت عندها لم تضمّها بشفة ولا لسان ولا حلق لضمّ غيرها"[17].

وما توصّل إليه سيبويه في وصفه لأصّوات المدّ واللين اعتماداً على تجربته الذاتيّة، جاء مطابقاً لوصف علم الصّوت الحديث لها، وعلى تجارب مختبر الصّوت، فقد توصلت (المدرسة الفونولوجية الفرنسية) إلى أنّ أصّوات المدّ في اللّغة العربيّة تشتمل على ستة أصّوات" موزعة بالتساوي على ثلاثة صوتيات قصيرة هي : الكسرة، والفتحة، والضمة، الّتي تتميز في الطول وفي الكم عن الصوتيات الطويلة الأخرى: الياء والواو والألف"[18].

وعلى الرغم من أنّ سيبويه قد حشر (الألف، والياء، والواو) ضمن الأصوات الصامتة، وهو أمر لا يمكن تسويغه لأنّ (الألف) صوت مدّ لاحيّز له، و (الواو، والياء) ليست لها إلا في بعض الحالات صفة الأصّوات الصّامتة حين يكونان في حالة نصف المدّ، لأنهما في كثير من أحوالهما يُعدّان صوتي مدّ، فإنّه قد فطن بملاحظته الدقيقة إلى ازدواجية صوتي " الواو، والياء"[19]، إذ لاحظ أنّ " الألف لا تُغيّر على كل حال، لأنّها لو حُركت صارت غير ألف، والواو والياء تحركان ولا تغيران"[20]، ثمّ أنّه أشار إلى" أنّ الألف حرف لين اتسع مُخْرَجَه لهواء الصّوت، مُخْرَجَه اشدّ من اتساع مُخرج الياء والواو، لأنّك قد تضمّ شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل الحنك"[21]، فهو وإنْ عقل ذكر دور اللّسان في إخراج(الواو) فقد أشار صراحة إلى وظيفة اللّسان في إخراج (الياء) وإنّ تعبيره بـ (قد) تعبير دقيق عن" وجود حال يجنح فيها صوتا الواو والياء عن أنْ يكونا صوتي مدّ محض"[22]

نخلص مما سبق إلى أنّ سيبويه قد فطن إلى فكرة تحول (الواو، والياء) في حال المدّ المحضّ إلى حالة نصف المدّ، وهذه الحقيقة التي توصّل إليها سيبويه أمرٌ يقرّه البحث الصّوتي الحديث، غير أنّ ما يُؤخذ عليه، هو أنّه قَصَر مخرج الواو على الشفتين.

وعلى الرغم من أنّ البحث الصّوتي الحديث لا يستبعد وظيفة الشفتين في إخراج (الواو) إلا أنّ" مُخرجها من أقصى اللّسان حيث يقترب من أقصى الحنك، غير أنّ الشفتين حين النطق بها تستديران، أو بعبارة أدق تكمل استدارتهما، وهو ما يُعلّل به تطورها في كثير من اللّغات إلى صوت (v) وصوت (p) ."[23]

التغيرات الصّوتيّة:

تخضع الأصّوات اللّغويّة في أثناء التشكل الصّوتي لتغيرات صوتيّة، يطلق عليها البحث الصّوتي الحديث مصطلح "القوانين الصّوتيّة"[24]، ويلاحظ علماء اللّغة أنّ تطور اللّغات في جانبها الصّوتي أسرع وأكثر تنوعاً من تطورها في جوانب الصيغ والتّراكيب النّحْويّة" فالأصّوات الّتي تتألف منها كلمة ما لا تجمد على حالتها القديمة، بل تتغير بتغيير الأزمنة والمناطق وتتأثر بطائفة كبيرة من العوامل الطبيعيّة والاجتماعيّة واللّغويّة"[25]، ولعلّ ذلك راجع إلى أنّ

---

[17]–السابق،176/4.

[18]–بحث في فونولوجيا اللّغة العربيّة،ص171، 0اوديت بتي، مجلة الفكر العربي، بيروت، العددان(8–9)، كانون الثاني،1979م.

[19]–ينظر: الأصوات اللّغوية، ص79.د. إبراهيم أنيس، دار وهدان للطباعة والنشر، ط5، 1979م.،

[20]– الكتاب، 548/3.

[21]– السابق، 406/2.

[22]– في الأصّوات اللّغويّة، 79.

[23]– القراءات القرآنيّة، 42

[24]– أسس علم اللّغة، 64.

[25]– علم اللّغة، 275.

الجانب المنطوق في اللّغة يمارس حرية أكثر من الجانب المكتوب، إلى جانب أنّ اللّغة تصادف في تركيباتها وتجمعاتها ظروفاً سياقية لا تظهر في الكلام المكتوب[26]،ويُولي علم اللّغة الحديث القوانين الصّوتيّة أهمية بالغة، لما لها من تأثير في الكشف عن التغيرات الصّوتية أبرزها (قانون الأقوى) الذي يتلخص في أنّ الصّوت الضعيف يخضع للصّوت القوي في أثناء التشكيل الصّوتي[27]، ويظهر ذلك جلياً في تأثير (الصّاد) في الصّوت المجاور لها نحو تأثير (تاء) الافتعال (بالصّاد) في (مصتبر)، فيقال: (مصطبر).

(قانون الجهد الأقل):

هو القانون الّذي يفسر" رغبة المتكلم في بذل جهد اقل من نطق الأصّوات كي يوفر على لسانه بعض المشقة والعناء"[28]،ويعرف بـ" مبدأ الاقتصاد اللّغوي"[29]، ويحدث ذلك عند تتابع الأصّوات المتماثلة الّتي تحتاج إلى جهد عضليّ أكبر في النطق بها، فيعمد المتكلم إلى تغيير أحد الصّوتين إلى صوت آخر مغاير له لتيسير هذا المجهود العضلي[30]، فيقال مثلاً في: "سُرُر (سُرَر) وفي (عَكَب) (عنكب) "[31].

و(قانون التردّد النسبيّ):

الّذي يرى أنّ كون الأصّوات اللّغويّة أكثر تردّداً في الكلام يجعلها "عرضة لظواهر لغويّة نُسميها حيناً إبدالاً، وحيناً آخر إدغاماً، وقد يتعرض للسقوط في الكلام"[32] ولا يستبعد علم اللّغة الحديث وجود عوامل أُخر إلى جانب القوانين الصّوتيّة، تتحكم في إحداث التغيرات الصّوتيّة ومنها عامل السّرعة.

والّذي يهمني هنا هو الوقوف على أبرز (التغيرات الصّوتيّة) الّتي أشار إليها سيبويه، وبيان موقفه منها، ومدى اتفاقه مع نظرة المحدثين بشأنها، ومن خلال استقراء إشارات سيبويه إلى (التغيرات الصّوتيّة) وجدت أنّ معظمها تنطوي تحت ظاهرتين بارزتين: إحداهما (ظاهرة التماثل الصّوتي)، وقد درسّت من خلالها ظواهر: (الإعلال، والإبدال، والإمالة، والإتباع)، والأخرى (ظاهرة التخالف الصّوتي)، والّتي ترتبط مع ظواهر: (الإبدال، والحذف، والتخفيف) بصلة وثيقة.

التماثل الصّوتي في كتاب سيبويه:

أشار سيبويه في مواضع كثيرة من كتابه إلى ظاهرة التماثل، وتأتي عنده بمعان منها: المضارعة[33]، والتقريب[34]، والمشابهة[35]،والاتباع[36]،والمساواة[37]، وعقد لهذه الظاهرة باباً تحت عنوان " هذا باب الحرف الّذي يُضارع به

---

[26]– انظر: دراسة الصّوت اللغوي،317،د. أحمد مختار عمر، مطابع سجل العرب، ط1976،1،1م.

[27]– دراسة الصّوت اللّغوي، 319.

[28]– لغات البشر، 85.

[29]– يُنظر: النّحو العربي، 87.

[30]– ينظر: لحن العامة والتطور اللّغويّ، 41،د. رمضان عبد التواب، دار المعارف بمصر، ط1، 1967م.

[31]– دراسة الصّوت اللّغوي، 330– 331.

[32]– الأصّوات اللّغويّة،243.

[33]– ينظر: الكتاب، 4/445– 448– 471.

[34]– ينظر: الكتاب، 4/196.

[35]– ينظر: الكتاب، 4/447.

[36]– ينظر: الكتاب، 4/178.

[37]– ينظر: الكتاب، 4/196.

حرف من موضعه، والحرف الّذي يُضارع به الحرف وليس من مَوضعه"[38]، وفي أبواب الكتاب الّتي تشتمل على الدّراسات الصّوتيّة إشارات واضحة إلى هذه الظاهرة، ومثل: "باب الهمزة "[39]، و " باب افتعلت "[40]، و"باب ما هذه الحروف فيه فاءات "[41]، و " باب الحروف الستة إذا كان واحد منها عيناً وكانت الفاء قبلها مفتوحة وكان فَعِلاً"[42]، و"باب الإمالة "[43]، و " باب الراء "[44]، و " باب ما تُكسر فيه الهاء "[45]، و" باب الإدغام "[46]، وغيرها كثير، والملاحظ في كتاب سيبويه أنّه عالج ظاهرة المماثلة ضمن مواضيع (الإبدال، والإدغام، والإمالة، والإعلال) وهي ظواهر لغويّة تحقق من خلالها أصوات اللّغة الانسجام فيما بينها بهدف التخفيف، والاقتصاد في الجهد العضلي سواء أكان هذا الانسجام حاصلاً بين الصّوامت أو المصّوتات، أم العكس.

أوّلاً: التماثل بين الصّوامت:

التماثل المقبل والإبدال: الإبدال: " جعل حرف مكان حرف "[47]، ويبدل حرف صامت في التشكيل الصّوتي مكان حرف صامت آخر تحت تأثير صوت ثالث ليماثله في المخرج، وقد ذكر سيبويه أنّ (الدّال)تبدل من (التاء) في (افْتَعَل) إذا كانت بعد (الزّاي) نحو (ازْدَجَر) وعبارته: " وأمّا الدّال فتُبدل من التاء في افْتَعَل إذا كانت بعد الزّاي في ازْدَجَر ونحوها "[48]، ولم يذكر تعليلاً لهذا الإبدال؛ إلا أنّه يُفهم من قوله: إذا كانت بعد (الزّاي)، أنّ المراد من هذا الإبدال هو التماثل،أي تقريب صوت من صوت آخر قصد المجانسة، فأصل (ازْدَجَر) (ازْتَجَر) فالزّاي حرف مجهور، والتاء حرف مهموس، فتحوّلت التاء المهموسة تحت تأثير الزّاي المجهورة إلى حرف مجهور قريب عنه في المخرج، وهو الدال، وهذا ما يُعرف في الدّرس الصّوتي الحديث بـ(التماثل المقيل)، أي تأثير الحرف السابق بالحرف اللاحق[49]، ذلك أنّ المماثلة إذا حصلت بين أصوات متجاورة (متاخمة) تُعرف بـ" مماثلة متجاورة"[50]، وقوله: "وكما أنّهم إذا أدنوا الحرفَ من الحرف كان أخف عليهم نحو قولهم: (ازْدان) و(اصْطبر)"[51]، ومنه تأثير تاء الفاعل بلام الفعل إذا كان صوتاً مطبقاً فتقلب (التاء طاء) في بعض اللّهجات القديمة لتماثل (الصاد في الإطباق، و" ذلك قولهم: فَحَصْطُ برجلي"[52]، في (فَحَصْتُ برجلى)، وهي لغة تميم[53].

---

[38]- الكتاب، 4/477.

[39]- الكتاب، 4/177- 276- 390.

[40]- الكتاب،4/73.

[41]- الكتاب، 4/104.

[42]- الكتاب، 4/107.

[43]- الكتاب، 4/117.

[44]- الكتاب، /4/136.

[45]- الكتاب، 4/195.

[46]- الكتاب، 4/431.

[47]- شرح الشافية، 3/197.

[48]- الكتاب، 4/239.

[49]- دراسة الصّوت اللّغويّ 325، والتّطور اللّغويّ،24،د.رمضان عبد التواب، مطبعة المدني،ط1، القاهرة،1983م.

[50]- دراسة الصّوت اللّغوي، 325.

[51]- الكتاب، 4/335.

[52]- الكتاب، 471.

[53]- الكتاب،4/240.

وُفسر الدّرس الصّوتي الحديث هذا التغيير الصّوتي بـ(قانون الأقوى) الّذي ينصّ على أنّه "حينما يؤثر صوت في آخر فإنّ الأضعف بموقفه في المقطع أو بامتداده النطقي هو الّذي يكون عرضة للتأثر بالآخر"[54]، والصّاد صوتٌ مطبق، وإنّ " أصوات الإطباق تُمدّ نفوذها إلى ما سبقها ويتبعها من أصوات"[55].

التماثل المدبر والإبدال: أشار سيبويه إلى تأثير الصّوت اللاحق في الصّوت السابق، وهو ما يُعرف بـ(التماثل المدبر) وذلك نحو: (مَصْدر)، و(أصْدَر)، و(التَّصْدير) وذكر أنّ (الصّاد) تُضارع أشبه الحروف بالدّال من موضعه، وهي (الزّاي) وذلك لأنّ (الدّال) صوت مجهور[56]، و(الصّاد) صوت مهموس[57]، فيؤثر الصّوت المجهور في الصّوت المهموس فَيُحوّله إلى أقرب صوت للصّاد وهو (الزّاي)، لأنّ (الصّاد) و (الزّاي) من مُخرج واحد " ممّا بيْن طرف اللّسان وأصول الثنايا"[58]، المقابل المجهور لصوت (الصّاد) هو (الزّاي)[59].

قال سيبويه: " فلما كانتا – يعني الدّال والصّاد – من نفس الحرف أُجْريتا مُجْرى المضاعف الّذي هو من نفس الحرف من باب (مدَدْت) فجعلوا الأوّل تابعاً للآخر، فضارعوا به أشبه الحروف بـ(الدّال) من موضعه، وهي (الزّاي) لأنّها مجهورة غير مطبقة"[60]، ونسب إبدال (الصّاد زاياً) إلى العرب الفصحاء، قال: " وسمعنا العرب الفصحاء يجعلونها زاياً خالصة ... وذلك قولك في (التّصدير : التّزدير) وفي (الفصد: الفزد) وفي (أصْدَرت: ازْدرت)"[61]، وقد شرط لها الإبدال سكون (الصّاد) ومجيء (الدّال) بعدها، قال : " فأمّا الّذي يُضارع به الحرف الّذي من مُخرجه فالصّاد السّاكنة إذا كانت بعدها الدّال"[62]، وعلل الإبدال بتقريب الصّوت من الصّوت حتى يستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد، وعبارته " وإنّما دعاهم إلى أنْ يُقرّبوها ويُبدلوها أنْ يكون عملهم من وجه واحد وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد "[63]، ويُفهم من كلامه أنّ المتكلم في تغييره لصفة صوت (الصّاد) من الهمس إلى صفة صوت يتّحد معه في المُخرج، ويختلف عنه في الصفة وهو (الزّاي) المجهورة لمضارعة صوت (الدّال) وهو الرغبة في بذل جهد أقل، حتى يُوفر على نفسه بعض المشقة في النُطق، وهذا القانون الصّوتيّ الّذي اهتدى إليه سيبويه بفطنته يُعرف في الّدرس الصّوتيّ الحديث بـ(قانون الجهد الأقل)[64]، الّذي يُوفر توفير المجهود الّذي يُبذل في نُطق أصوات اللّغة بحدّ أدنى من الجهد[65]، والتماثل هنا من نوع التماثل المتجاور[66] .

---

[54]– دراسة الصّوت اللّغويّ، 319.

[55]– السابق نفسه.

[56]– الكتاب، 434/4.

[57]السابق، نفسه.

[58]– السابق، 433/4.

[59]– يُنظر: مناهج البحث في اللّغة، 128.

[60]– الكتاب، 477/4، 478.

[61]– السابق، 478/4.

[62]– السابق، 477/4.

[63]– السابق، 478/4.

[64]– دراسة الصّوت اللّغويّ، 319.

[65]– يُنظر: التطور اللّغويّ،56.

[66]– ينُظر دراسة الصّوت اللّغويّ، 325.

وقد يحصل التماثل المدبر بين صوتين متباعدين، ويُعرف هذا اللّون من التماثل بـ(مماثلة تباعديّة)[67]، وذلك عند وجود صوت مجهور أو مُفخم داخل بنية الكلمة، فيُؤثر في الأصّوات الباقية ، ويكون الصّوت الضعيف عرضة للتغيير، نحو : (مصادر وصراط)، والأصل (مسادر وسراط)، ومذهب سيبويه أنّ (السين) الأصل ثمّ أُبدلت (صاداً) لتُضارع صوت (الدال) المجهورة، والمناسبة في إبدال (السين صاداً) أنّهما من مُخرج واحد " مما بين طرف اللّسان وُفيق الثنايا "[68]، وهما من الحروف المهموسة إلا أنّ (الصّاد) من حروف الاستعلاء؛ فتحولوا عن (السين) إلى أختها لأنّ (السين والصّاد) أُختان ويُفرق بينهما ترقيق الأولى وتفخيم الثانية[69]، وحصل التماثل بين (الصّاد) و(الدّال) على الرغم من كونهما بعيدين ، وما قيل عن إبدال (السين صاداً) تحت تأثير (الدّال) المفخمة ينطبق على (الصّراط) وذلك (لأنّ الطاء كالدّال) في التفخيم، قال سيبويه: " وربّما ضارعوا بها وهي بعيدة، نحو: (مصادر) و (الصّراط) لأنّ (الطّاء كالدّال)، والمضارعة هنا وإنْ بعدت (الدّال) بمنزلة قولهم : (صَوِيقٌ) و (مَصَاليق)، فأبدلوا (السين صاداً)[70]، والملاحظ أنّ سيبويه قد شرط في إبدال (الصّاد زاياً) سكون (الصّاد)، قال : "فأمّا الّذي يُضارع به الحرف الّذي من مُخرجه فـ(الصّاد) السّاكنة إذا كانت بعدها (الدّال)"[71]، ويُفسر الدّرس الصّوتي الحديث تعليل سيبويه بـ(قانون الجهد الأقل)، والّذي يُلاحظ في التماثل المقبل أنّ الصّوت المتقدّم يُؤثر في الصّوت الّذي يليه إذا كان مجهوراً أو مفخماً.

التماثل الكامل (الإدّغام):

أبدى سيبويه في كتابه عناية فائقة بظاهرة الإدّغام، وخصّها بدراسة مفصّلة فذكر أنواعها، واهتدى إلى القوانين الصّوتيّة الدقيقة في كيفية تعامل الأصّوات اللّغوية بعضها مع بعض ضمن التشكيل الصّوتي لتحقيق هذه الظاهرة، ونعرج هنا بعض التعريج على ذكره لـ(إدغام المثْلين) مع التّركيز على (إدّغام المتقاربين) الّذي يتحقق من خلاله (التماثل الكامل).

1- إدّغام المثلين:

ذكر سيبويه أنّ العرب مجتمعون على تحقيق الإدّغام في الفعل إذا توالى صوتان متماثلان في (عينه ولامه)، قال: "أمّا ما كانت عَينَه ولامه من مَوضع واحد فإذا تحركت اللام منه وهو (فِعْل) ألزموه الإدغام وأسكنوا العين فهذا مُلتَبٌ في لغة تميم وأهل الحجاز"[72]، وشرط لذلك سكون الصّوت الأوّل وتحرك الثاني.

وعلل رغبة العرب في الإدّغام المتماثلين بالميل إلى الخفة، وعامل توفر الجهد لأنّه يثقل على اللّسان نُطق صوتين متماثلين في موضع واحد، قال: " وذلك لأنّه يَثْقُل عليهم أنْ يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد ولا تكون مهملة كرهوه وأدغموا لتكون دفعة واحدة، وكان أخف على ألسنتهم"[73]

ويُعرف هذا التغيير الصّوتي في البحث الصّوتي الحديث الّذي يحقق الجهد في النُطق بـ(قانون الجهد الأقل).

---

[67]- دراسة الصّوت اللّغويّ، 325.

[68]- الكتاب، 433/4.

[69]- دراسة الصّوت اللّغويّ،270.

[70]- الكتاب، 478/4.

[71]- السابق، 477/4.

[72]- السابق، 417/4.

[73]- السابق، 417/4، ويُنظر:129/4.

2- إدّغام المتقاربين:

وهو ما يُعرف بـ(التماثل الصّوتي التام) أو (المماثلة الكاملة) عندما يُفني أحد الصّوتين المتجاورين في الآخر لتحقيق حالة من التجانس وذلك بتأثيرأحد الصّوتين في الآخر، وتقريبه من خصائصه، وإدّغامه منه بحيث ينطق بالصّوتين صوتاً واحداً؛ فإذا أثر الصّوت الأوّل في الثّاني، حصل التماثل المدبر في الإدّغام، وقد يتحقق التماثل في الإدغام بتأثير الصّوت الثاني في الأوّل [74] وذكر سيبويه ملاحظات صوتية بالغة الأهميّة في كيفية تحقيق (إدّغام المتقاربين)، وانطلاقاً من نظريته الدقيقة تلك، فطن إلى أنّ شرط حصول التماثل الكامل الإدّغام (المقاربة من المُخرج)[75]، و(المضارعة في الصفة)[76]، و" أصّل الإدّغام في حروف الفم واللّسان لأنّهما أكثر الحروف "[77]، " وليست حروف الحلق بأصّل للإدّغام "[78]، وميّز الحروف الّتي يجوز لها ذلك[79]، وتابع سلوك الصّوتين المتقاربين في أثناء التآلف الصّوتي لتحقيق التماثل الكامل (الإدّغام) ونقف في كتابه على نوعية: (المقبل ، والمدبر):

التماثل المقبل:

من الأمثلة الّتي ذكرها سيبويه له: مُثّرد، ومُصّبر، واضّجر، ومُسّمَع، ومُضّجع، وعدّة، والأصّل: مُثْتَرد، ومُضْطَجر، واضْطَجر، ومُسْتمع، ومُضْطَجع، وعُدْتَه، ففي: مُثْتَرد التقى الصّوتان (ث + ت) وهما أختان من مُخرجين متقاربين، فمُخرج (الثّاء) " ممّا بين طرف اللّسان وأطراف الثنايا "[80]، ومُخرج (التّاء) " ممّا بين طرف اللّسّان وأصول الثنايا "[81]، فهما من حيّز واحد، وليس بينهما إلاّ ما بين طرف اللّسان وأصولها[82]، فأثّر الصّوت الأوّل في الصّوت الثّاني ليُماثله في المُخرج فتحوّل الصّوتان المختلفان إلى صوت واحد (ت + ث) فأدّغما ليُنطقا صوتاً واحداً، وعبارة سيبويه: " وإذا كانت هذه الحروف المتقاربة في حرف واحد ولم يكن الحرفان منفصلين ازداد ثقلا واعتلالاً، كما كان المِثلان إذ لم يكونا منفصلين أثقل، لأنّ الحرف لا يُفارقه ما يستثقلون فمن ذلك قولهم في : مُثْتَرد، مُثّرد لأنّهما متقاربان مهموسان "[83]، وقد يكون التماثل في (مُثْتَرد) رجعياً، عندما يؤثر الصّوت الثّاني في الصّوت الأوّل فيتحوّل الصّوتان (ث+ت) إلى صوت واحد (ت، ت)، فيُقال مُتّرد، وهو القياس، وعبارة سيبويه: " والقياس مُتّرد "[84] وعلل ذلك بأنّ " أصّل الإدّغام أنْ يُدغم الأوّل في الآخر "[85] .

التماثل المدبر:

وصفه سيبويه بأنّه الأصّل في الإدّغام، وذكر له أمثلة كثيرة، منها ما يكون التماثل المدبر حاصلاً بين صوتين متقاربين ضمن الكلمة الواحدة، ومنها ما يكون بين صوتين متقاربين غير أنّهما في كلمتين منفصلتين؛ فمن الأوّل:

---

[74]- يُنظر: المنهج الصّوتي للبنية العربيّة، 208،عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرّسالة، 1980م.

[75]- يُنظر: الكتاب: 4/445-446.

[76]- السابق، 4/450-451-452.

[77]- السابق، 4/ 448- 454.

[78]- السابق، 4/451.

[79]- يُنظر: المنهج الصّوتي للبنية العربيّة،208.

[80]- يُنظر: الكتاب، 4/4445-446.

[81]- يُنظر: الكتاب، 4/450-451-453.

[82]- الكتاب، 4/448- 454.

[83]- السابق، 4/467.

[84]- السابق نفسه.

[85]- السابق نفسه.

(يطّوعون)، و(مطّلم) و(مُزّمان) و(منسّاعة) والأصّل: (يَتَطوعون) و(مُظْطلم)، و(مُزْرمان)، و(ومُذْ ساعة)، فالتّاء والطّاء من موضع واحد، يخرجان ممّا بين طرف اللّسان وأصول الثنايا[86]، وهما أختان و " يفرق بينهما ترقيق الأوّلى وتفخيم الثّانيّة "[87] ويقول سيبويه: " إذا كانت (الطّاء) معها – يعني مع التّاء – فهو أجدر أنْ تقلب (التاء طاء)، ولا تدغم (الطّاء) في (التّاء) فتُخل بالحرف، لأنّهما في الانفصال أثقل من جميع ما ذكرناه، ولم يدغموها في (التّاء)؛ لأنّهم لم يُريدوا أنْ يبقى الإطباق، إذا كان يذهب في الانفصال، فكرهوا أنْ يلزموه ذلك من حرف ليس من حروف الإطباق، وذلك قولك : (إطَّعنوا)، ويُلاحظ من عبارة سيبويه أنّ صفة الإطباق في (الطّاء) تمنحها قوة التأثير في (التّاء) غير المطبق، وعبارته " الطّاء وهي مطبقة لا تُجعل مع التّاء تاءً خالصة؛ لأنّها أفضل منها في الإطباق"[88]، ثمّ إنّه يرى أنّ " المطبق أفشى في السمع"[89]، وبهذا القانون الصّوتي الدقيق قد سبق المحدثين في الاهتداء إلى (قانون الأقوى)، ويشيع هذا القانون بشكل عام في التماثل المدبر: "إلا في حالة ما إذا كان الأوّل أقوى مجهوراً، مفخماً فإنّه لا يجوز أنْ يكون من التأثير...؟"[90].

ومن التماثل الكامل الّذي لا يكون إلا مُدبراً، فناء أحد الصّوتين المتقاربين في الآخر عندما يكونان في كلمتين منفصلتين، وذلك نحو: (مَمّثلك) في (مَنْ مِثلك)، وعبارة سيبويه : " كما أنّك تقول: مَمّثلك، فتجعل النون ميماً "[91]، وعلى حصول المماثلة الكاملة بين النون والميم بوجود الشبه بينهما قال: " لأنّ النون أشبه بالميم"[92].

وموضع الشبه أنّهما تخرجان من الخياشيم، وعبارته: "إلا أنّهما اشتبها بخروجهما من الخياشيم"[93]، إلى جانب اشتراكهما في صفة الجهر، قال: " وتُدغم النون مع الميم لأنّ صوتهما واحد، وهما مجهوران، قد خالفا سائر الحروف الّتي في الصّوت، حتى إنّك تسمع النون كالميم، والميم كالنون"[94]، وتظهر لنا هذه الحقيقة بوضوح في إدغام (الباء) في (الميم)، نحو : (اصْحِبْ مطراً) فيقال: (اصْحمْطرا)، وعبارته : "وأمّا الإدّغام في الميم فنحو قولهم : اصْحَمْطرا تريد اصْحبْ مطرا مُدغم"[95].

ومن التماثل الكامل (الإدّغام) الّذي لا يكون إلا مدبراً، إدّغام لام التعريف في ثلاثة عشر حرفاً، وهي :" النون، والراء، والدّال، والتّاء، والصّاد، والطّاء، والزّاي، والسّين، والثّاء، والذّال، والضّاد، والشّين "[96]، وقد أشار سيبويه إلى ذلك بوضوح في قوله: " ولام المعرفة تُدغم في ثلاثة عشر حرفاً لا يجوز فيها معهن إلا الإدغام"[97]، ومثّل لذلك بـ" النعمان، والرجل "[98].

---

[86]– الكتاب، 433/4.

[87]– دراسة الصّوت اللّغويّ، 270.

[88]– السابق، 418/4.

[89]– السابق، 460/4.

[90]– دراسة الصّوت اللّغوي، 333.

[91]– الكتاب،109/4.

[92]– السابق نفسه.

[93]– الكتاب: 403/4، ويُنظر:461/4.

[94]– السابق،452/4.

[95]– السابق، 477/4.

[96]– السابق،457/4.

[97]– السابق، نفسه.

[98]– السابق، نفسه.

ونخلص ممّا سبق قوله إلى أنّ التماثل الكامل (الإدّغام) هو فناء صوت في آخر بأنْ يكتسب أحد الصّوتين صفة الصّوت الآخر ويقربه من صفته ومُخرجه ليتحدا في صوت واحد، وقد يكون التماثل مقبلاً أو مدبرا، بيد أنّ الأصل أنْ يكون مدبراً وتتوضح هذه الحالة جليّة في تماثل صوتين متقاربين في كلمتين منفصلتين، وإذا كانت الرغبة في الجنوح نحو السهولة عاملاً أساساً في إقامة التماثل بين صوتين في كلمة واحدة، فإنّ هذا الأمر يكاد يختفي بين صوتين في كلمتين منفصلتين.

ثانياً- التماثل بين المصوّتات:

بينت فيما سبق العلاقة القائمة بين ظاهرة التماثل والإبدال بين الأصّوات الصّامتة، وأحاول هنا أنْ أقف على الأثر الّذي تتركه الظاهرة نفسها في تقريب الأصّوات المصوّتة بعضها في بعض، لأنّ (الإعلال)تغيير يصيب الحروف المصوّتة كما يراها سيبويه[99]، ومَرد هذا التغيير الصّوتي الّذي يطرأ على بنية الكلمة في أثناء تعامل الأصّوات المصّوتة، حصول نوع من الانسجام بينهما، ويتحكم في مسألة الانسجام، الذّي هو التماثل الصّوتي، نزوع اللّسان نحو الخفة حين النطق بالأصّوات المصوّتة، لأنّ " رفع اللّسان من موضع واحد أخف عليهم"[100]، واستند سيبويه في معالجة التماثل بين الأصّوات المصوّتة إلى جملة من الأحكام الّتي توصّل إليها من خلال الملاحظة الدقيقة لمنهج التشكيل الصّوتي، إذ وجد أنّ بنية الكلمة لا تخلو من المصوّتات الطويلة (الألف، والياء، والواو) أو من بعض (الفتحة، والكسرة، والضمّة)، وعبارته: " فإنّهنّ يكثرن في كلّ موضع، ولا تخلو منهن حرف أو من بعضهن"[101]، واهتدي في منهجه الوصفيّ المعتمد على استعماله فعلاً من كلام العرب: أنّهم يفاضلون بين الأصوات المصّوّتة فـ"الفتح أخف عليهم من الضمّ والكسرة، كما أنّ الألف أخف من الواو والياء"[102].

وتبيّن لسيبويه أنّ ظاهرة المماثلة بين الأصوات المصوّتة (الإعلال) لا تختلف عن ظاهرة المماثلة بين الأصوات الصّامتة (الإبدال)، وعبارته " وكما أنّهم إذا أُتوا الحرف من الحرف كان أخفَّ عليهم نحو قولهم: ازْدانَ واصْطَبَرَ، فهذه قصة الواو والياء"[103]، ومن منطلق تحقيق الانسجام بين الأصوات المصوّتة قصد الميل نحو الخفة عالج سيبويه ظاهرة (الإعلال)، قال: "وإذا قلت: يَفْعَلُ فبعض العرب يقولون: يَبْجَلُ قولك: (حالت، حيالاً)، و(قمت قياماً)، وإنّما قلبوها حيث كانت معتلة في الفعل، فأرادوا أنْ تعتل، وإذا كانت قبلها كسرة وبعدها حرف يشبه الياء فلما كان ذلك فيها مع الاعتلال لم يقروها... ومثل ذلك (سوط وسياط) و (ثوب وثياب)، و (روضة ورياض)"[104].

ويرى أنّ الرغبة في انتقال النطق من الحركة الخفيفة إلى حركة تماثلها هي السبب في الإعلال، و، وعبارته: " وكان العمل من وجه واحد أخف عليهم"[105]، ومنه: (ميزان)،و(ميقات)، و (ميعاد)، والأصل: (مِوْزان)، و(مِوْقات)، و(مِوْعاد) و"إنّما أبدلوا (الياء) لاستثقالهم هذه (الواو) بعد الكسرة"[106].

---

[99]- يُنظر الكتاب: 4/436-465.

[100]- الكتاب، 4/465.

[101]- السابق، 4/318.

[102]- السابق،4/115-167.

[103]- الكتاب، 42/335.

[104]- الكتاب، 4/36.

[105]- السابق نفسه.

[106]- السابق، 3/458.

ويرى الدكتور داود عبده أنّ " الواو تقلب ياء حين ترد قبل صحيح ساكنة مسبوقة بكسرة، وذلك مماثلة للكسرة"[107]، ويرى الدكتور عبد الصبور شاهين أنّ تتابع صوتين مزدوجين في (سَيْود) يشبه تتابع الكسرة والضمة " حيث تقع فيه (الواو) إثْرَ (الياء) ونظراً لصعوبة هذا التركيب وكراهة اللّغة له فإنّها مالت إلى إحداث الانسجام في هذا المثال، وأشباهه بتغليب عنصر الكسرة على عنصر الضمة، وهنا يمكن أنْ يُقال: أنّ (الواو) قلبت (ياء) فعلاً "[108].

يتضح ممّا سبق أنّ (الإعلال بالقلب) يهدف إلى تحقيق الانسجام الصّوتي بين المصوّتات عن طريق المماثلة، ليتجنب اللّسان من النطق بالمصوّتات غير المماثلة الّتي تشكل ثقلاً على اللّسان، وأنّ الغالب على هذا النوع من التماثل المقبل، فالمصوّت اللاحق يخضع للتغيير الصّوتي مجانسة للمصوّت السابق.

التماثل الصّوتي والإمالة:

الإمالة ظاهرة لغويّة تميّزت بها بعض اللّهجات العربيّة، وتهدف إلى خلق ضرب من المماثلة بين المصوّتات، والتماس الخفة في النطق، وقد درسها سيبويه ضمن منهجه الّذي اتسع ليُغطي معظم الظواهر اللّغوية وهي لا تظهر إلا في السماع، ولذلك لا تنتمي إلى لغة الكتابة، والعناية بالسماع ضرب من الوصّف وعلى الرغم من أنّ سيبويه لم يُعرّف الإمالة في الاصّطلاح، غير أني أفهم من إشارته إلى صيغتي: (قَرُبَ) و (نَحا) أنْ غاية الإمالة الجنوح إلى الانسجام بتقريب صوت مصوّت من آخر، فقد قال عن (عابد) و (عالم) و (مساجد)و (مفاتيح)، " وإنّما أمالوها – أيّ الألف – للكسرة الّتي بعدها، أرادوا أنْ يقربوها منها "[109]، ثمّ قال: " فالألف تشبه الياء، فأرادوا أنْ يقربوها منها"[110] وقوله: " والياء أخف عليهم من الواو فنَحو نحوها "[111]، وقوله: وممّا يُميلون ألفه كلّ شيء كان من بنات (الياء) و(الواو) ممّا هما فيه عين، إذا كان أوّل (فَعَلْتُ) مكسوراً نَحَوْا نَحْوَ الكسرة كما نَحَوْا نَحْوَ الياء فيما كانت ألفه في موضع الياء "[112]، وقد أفاد علماء العربيّة من بعد سيبويه من إشارته الجليلة إلى صيغتي: (قَرُبَ) و (نَحا) في تعريف الإمالة.

يقول أبو شامة (ت،665هـ): " فالإمالة الشديدة أنْ تُقَرّبَ الفتحة من الكسرة والألف من الياء من غير قلب خالص ولا إشباع مبالغ فيه"[113]، وجاء في الهمع:" قاربوا بين الألف والياء بأنْ نَحَوْا

بالألف نَحْوَ الياء، ولا يمكن أنْ يُنْحَى بها نَحْوَ الياء حتى يُنْحَى بالفتحة نَحْوَ الكسرة"[114]، والحق أنّ سيبويه عندما أشار إلى إمالة الألف من أجل الكسرة، وذلك نحو: (عابد ، ومساجد) أو إلى إمالة الألف من أجل الياء، نحو: (معايش) لاحظ أنّ الفرق بين الفتحة والألف والكسرة والياء لا يعدو أنْ يكون فرقاً في الكميّة، فالألف هي فتحة

---

[107]– دراسات في علم الأصّوات العربيّة، 19.

[108]– المنهج الصّوتي للبنية العربيّة، 190.

[109]– الكتاب، 117/4.

[110]– الساق نفسه .

[111]– السابق، 119/4.

[112]– السابق، 120/4.

[113]– إبراز المعاني من حروف الأماني،152، أبو شامة، (ت:665هـ)، مطبعة الباني الحلبي، 1349هـ.

[114]– همع الهوامع، 200/2، السيوطي، صححه بدر الدين النعساني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت،(د.ت)

طويلة، والياء هي كسرة طويلة، يقول: " لأنّ الفتحة من الألف وشَبهه بالكسرة كشَبه الألف بالياء"[115]، فهو يرى أنّ الحركات القصار بعض من الطوال " فالفتحة من الألف، والكسرة من الياء، والضّمة من الواو "[116].

وإذا نظرنا إلى العلاقة بين المماثلة والإمالة في كتاب سيبويه وجدناها على نوعين:

أحدهما، التماثل المقبل: ويظهر ذلك في الكلمات التي وقعت فيها الإمالة مماثلة لكسرة أو ياء قبل الألف[117]، وذلك نحو: (سِرْبال)، و(شِمْلال)، و(عِماد)، و(كِلاب)[118]، ونحو: (سَيَّال)، و(ضَيَّاح) و(كَيْال)، و (بَيَّاع)، و (عَيْلان)، و (غَيْلان)[119]، فالألف في الأمثلة المتقدمة أثر في إمالتها في الصّوت الواقع قبلها .

والآخر التماثل المدبر: والإمالة هنا راجحة إلى التجانس الصّوتي بين الألف والصّوت الواقع بعدها، وتظهر في الأمثلة الآتيّة: " عابد، وعالم، ومساجد ، ومفاتيح "[120]، و " مررت ببابك، ومررت بمال كثير "[121]، و " ومِنْ حمارك، ومِنْ عَواره، وقارب، وغارم، وطارد "[122]، ولاحظ سيبويه أنّ حروف الاستعلاء تمنع الإمالة، يقول: " فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه السبعة: الصّاد، والطّاء، والظّاء، والعين، والقاف، والخاء"[123]، وعلل ذلك بقوله: " والألف إذا خرجت مِنْ موضعها استعلت إلى الحَنَك الأعلى، فلما كانت مع هذه الحروف المستعليّة غلبت عليها كما غلبت الكسرة عليها في مساجد ونحوها، فلما كانت الحروف مُسْتعليّة وكانت الألف تَسْتَعلى، وقربت الألف كان العمل من وجه واحد أخف عليهم "[124]، فالمانع من الإمالة إذن هو الشبه في الاستعلاء بين الألف الممالة وحروف الاستعلاء يسبب ثقلاً على اللّسان، بَيْدَ أنّه أجاز ذلك مع الراء؛ لأنّها كما يقول: " تشبه الياء "[125].

التماثل الصّوتي والإتباع:

يُعدّ الإتباع ضرباً من الانسجام الصّوتي بين المصوّتات، وأشار سيبويه إلى ظاهرة الإتباع– قد يستعمل مصطلح (التسوية) للدلالة على الإتباع –[126]، ما تحققه من التّجانس الصّوتي لتجنب اللّسان من المشقة في النُطق، وتأتي هذه الظاهرة عنده على نوعين:

أحدهما، الإتباع المقبل: وفيه يؤثر المصوّت المتقدم في المصوّت المتأخر تحقيقاً للتجانس الصّوتي بينهما، وذلك نحو: (بِهِم، و بدارِهِم) والأصّل (بهُم و بدارِهُم)، قال: " اتّبعوا الكَسْرَة الكَسْرَة، نحو قولهم: بِهِم وبدارِهِم ممّا أشبه هذا"[127].

---

[115]– **الكتاب، 142/4.**

[116]– **الكتاب، 242/4.**

[117]– **ينظر الكتاب، 117/4– 121– 122.**

[118]– **الكتاب، 117/4.**

[119]– **الكتاب، 122/4.**

[120]– **ينظر الكتاب،117/4.**

[121]– **ينظر الكتاب، 118.**

[122]– **الكتاب، 136/4.**

[123]– **الكتاب، 128/4.**

[124]– **الكتاب، 129/4.**

[125]– **الكتاب، 242/4.**

[126]– **ينظر الكتاب، 177/4– 178.**

[127]– **الكتاب، 436/1.**

والآخر،الإتباع المدبر: وفيه يتبع المصوّت الأوّل المصوّت الثاني ليماثله في النُطق، قال:

"وأمّا الّذين قالوا: مِغِيرة، ومِعِين؛ فليس على هذا ولكنّهم اتّبعوا الكسرة الكسرة، كما قالوا: مِفْتِن، وأُنْبُؤك، وأَجُؤك، يريد: أَجِيئُك، و أَنْبِئُك "[128]، ومنه أيضاً إتباع كسرة الألف الموصولة في الابتداء ضمة الحرف الثالث، يقول: " واعلم أنّ الألف الموصولة.... في الابتداء مكسورة أبداً إلا أنْ يكون الحرف الثالث مَضموماً فتضُمّها، وذلك قولك: اُقْتُل، واُسْتُضْعف، واُخْتُبِر، واُحْرُنْجم، وذلك أنّك قرّبت الألف من المضموم إذ لم يكن بينهما إلا ساكن؛ فكرهوا كسرة بعدها ضمة، وأرادوا أنْ يكون العمل من وجه واحد"[129]، ويُلاحظ أنّ سيبويه يُفسر الميل إلى الإتباع بنوع من الاقتصاد في الجهد، وعبارته: (وأرادوا أنْ يكون العمل من وجه واحد) تُطابق التّجارب الصّوتيّة الحديثة في أنّ " الناطق حين يقتصد في الجهد العضّوي يميل دون شعور منه أو تعمد إلى الانسجام بين حركات الكلمات "[130]، ويتضح من الأمثلة الّتي يذكرها سيبويه في كتابه أنّ أكثر اللّهجات نزوعاً إلى الإتباع هي لهجة تميم، مما يؤكد قوة الإتباع عندهم، لأسباب تتعلق بطريقة الأداء، إذ " إنّ التميمين كانوا يميلون إلى السرعة في النطق فكان أنْ تأثرت الأصّوات عندهم بعضها بالبعض الآخر"[131]، واللّهجات ذوات الأداء السريع تجنح بوجه عام إلى "الإتباع ومجانسة الأصّوات كيلا يثقل عليها الانتقال من موضع إلى موضع آخر بعيد "[132]، وذلك أنّ النطق يغيّر من توالي أصوات مدّ متنافرة فيعمد اللّسان إلى التسوية بينها، ليكون العمل من وجه واحد.

التخالف الصّوتي في كتاب سيبويه:

ظاهرة التخالف ضدّ التماثل و" تتمثل في نزعة صوتين مثلين أو ذوي صفات مشتركة إلى التباين، وذلك إذا كانا متجاورين"[133] وتعزى هذه النزعة إلى الميل نحو تيسير النطق، وذلك عندما يجد المتكلم صعوبة في نطق صوتين متماثلين فيعمد إلى إبدال أحدهما بصوت آخر تحقيقاً للسهولة إذ إنّ الصّوتين المتماثلين يحتاجان إلى جهد عضلي في النطق بهما في موضع واحد و"لتيسير هذا الجهد العضلي يقلب أحد الصّوتين صوتاً آخر من تلك الأصّوات الّتي تتطلب جهداً عضلياً أقل"[134].

فطن سيبويه إلى ظاهرة التخالف الصّوتي، وعرف مظاهرها، وتبيّن أنّ قسماً من الألفاظ العربيّة قد خضع لتأثير هذا القانون؛ حيث أشار صراحة إلى مصطلح المخالفة في كتابه[135]، وقد يطلق عليه مصطلح: كراهية التّضعيف[136]، وقد علل سيبويه حصول هذه الظاهرة بقوله: " اعلم أنّ التّضعيف يثقل على ألسنتهم، وأنّ اختلاف الحروف أخف عليهم من أنْ تكون من موضع واحد "[137]، والملاحظ في أمثلة ظاهرة المخالفة في الكتاب أنّها ترتبط بوشائج مع الإبدال والحذف والتخفيف.

---

[128]– الكتاب، 109/4.

[129]– الكتاب، 146/4.

[130]– في اللّهجات العربيّة، ، د. إبراهيم أنيس، ط2، مطبعة ألبان العرب،1952م.

[131]– في الأصّوات اللّغويّة، دراسة في أصوات المدّ العربي،183، د. غالب المطلي، دار الحرية للطباعة، بغداد،1984م.

[132]– ينظر الكتاب،178/4.

[133]– دروس في علم الأصّوات العربيّة، 26.

[134]– لحن العامة والتّطور اللّغوي،41.د. رمضان عبد التواب، دار المعارف بمصر،ط1، 1967م.

[135]– ينظر الكتاب: 111/4.

[136]– الكتاب359/3، 424/4.

[137]– ينظر الكتاب:417/4.

التخالف الصّوتي والإبدال:

يحدث الإبدال عندما يتجاور صوتان متماثلان في كلمة واحدة، فيعمد المتكلم إلى إبدال أحدهما كراهية نطق المتماثلين على اللّسان، نحو: (قِرَبات) و (سِدَرات) و (كِسَرات)، والأصل: (قِرِبات) و(سِدِرات) ، (كِسِرات)، وقد أشار سيبويه إلى هذه التغيير الصّوتي وفسّره بكراهية اجتماع الكسرتين[138]، ومن مظاهر التخالف الصّوتي، إبدال (أنصاف المدّ)بأحد المضعفين، وذكره سيبويه في باب " ما أُشتدّ فأُبدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف وليس بمطرد "[139]، حيث قال: " وذلك قولك: تَسَرّيْتُ و تَظَنّيْتُ و تَقَصّيْتُ (من القصة) وأمْلَيْتُ "[140]، والأصل: تَسَرّرْتُ وتَظَنّنْتُ و تَقَصّصْتُ، وذلك لأنّ الإدغام لا يكون في الصّوت الثالث إذا اجتمع في الكلمة الواحدة ثلاثة أمثال أوّلها مدغم في الثاني فيُقلب الثالث (ياءً)، أمّا أَمْلَيْتُ فأصلها أمْلَلْتُ فقلب الثاني المضعف (ياء) لكراهية نطق المتماثلين.

ويحصل التخالف الصّوتي نتيجة تبادل مواقع أصوات المدّ مع الصّوامت في حالة اجتماع أنصاف المدّ، إذ " كثيراً ما تجنح العربيّة في هذه الأحوال إلى أنْ تقلب أحد الأصوات المتماثلة إلى صوت مغاير غالباً ما يكون الهمزة "[141]

التحالف الصّوتي والحذف: من الممكن أنْ نلحظ هذا المظهر من المخالفة بوضوح في (النسبة) وتتم هذه المخافة عن طريق حذف نصف المدّ المجانس للاحق النسبة، وهو الياء؛ لأنّ النسبة في العربيّة تتم من خلال إلحاق ياء مشدّدة قبلها كسرة بآخر الاسم الّذي يُنسب إليه، فكأنّ العربيّة "تجنح إلى إعادة التوازن إلى الكلمة بحذف الياء الّتي في الحشو "[142]، ولعلّ هذه الظّاهرة الّتي يذكرها سيبويه في (باب ما حذف الياء والواو فيه القياس)[143]، إذ يقول: " وذلك قولك في ربيعة رَبَعِيّ، وفي حنيفة حَنَفِيّ، وفي جَذِيمة جَذَمِيّ "[144]، فالمحذوف في هذه الأمثال هو ياء المدّ ، وقد وضع موضعها صوت مغاير لها هو الفتحة، وقد يلجأ المتكلم إلى حذف أنصاف المدّ من كراهية النطق بالأصّوات المتماثلة، يقول: " الياءات قد يُكرَهْن إذا ضُوعفن واجْتَمَعْنَ كما يُكره التّضعيف من غير المعتل "[145]، وممّا ذكره لهذه الحالة حذف الياء المتحركة في (أُسَيِد) و (حُمَيِّر) و (لُبَيِّد) وقد فسّر سيبويه حذف الياء المتحركة بقوله: " فإذا أضفت إلى شيء من هذا[146]، تركت الياء الساكنة وحذفت المتحركة لتقارب الياءات مع الكسرة الّتي في الياء والّتي في آخر الاسم، فلما كثرت الياءات وتقاربت الكسرات الّتي في الياء والدّال استثقلوه فحذفوا، وكان حذف المتحرك هو الّذي يخففه عليهم لأنّهم لو حذفوا الساكن لكان ما يتوالى فيه من الحركات الّتي لا يكون حرف عليها مع تقارب الياءات والكسرتين في الثقل مثل أُسَيِّد، لكراهيتهم هذه المتحركات، فلم يكونوا ليفروا من الثقل إلى شيء هو في الثقل مثله وهو

---

[138]- ينظر الكتاب: 3/580- 581.

[139]- الكتاب، 4/424.

[140]- السابق نفسه.

[141]- في الأصّوات اللّغوية، 223.

[142]- السابق، 287.

[143]- الكتاب، 3/339.

[144]- السابق نفسه .

[145]- الكتاب، 4/416- 417 .

[146]- المراد من ذلك الإضافة إلى كلّ اسم آخره ياءان مدغمة إحداهما في الأخرى

أقلّ في كلامهم منه، وهو أُسَيْدِيّ وحُمَيْرِيّ ولُبَيْدِيّ"[147]، ويُفسّر الدرس الصّوتي الحديث بأنّ الهدف من هذه الظاهرة هو: " تجنب النطق بمجموعة من الحركات المتحدة الطابع"[148].

التخالف الصّوتي والتخفيف: التخفيف مظهر آخر من مظاهر المخالفة، يجنح فيه المتكلم إلى تخفيف أحد الصّوتين المتماثلين للتخلص من ثقل النطق بالمتجانسات، وذلك إذا تتابعت كسرتان، نحو: (كِسِرات) فيقال (كِسْرات)، قال سيبويه: " ومَنْ قال: غُرْفات فخفف قال: كِسْرات"[149]، أو إذا تتابعت ضمتان نحو: (الرُّسُل) و(الطُّنُب)، و(العُنُق) فيقال: (الرُّسْل) والطُّنْب) و (العُنْق)، يقول: " إذا تتابعت الضمتان فإنّ هؤلاء يخففون أيضاً، وكرهوا ذلك، كما يكرهون الواوين، وإنّما الضمتان من الواوين فكما تكره الواوين كذلك تكره الضمتين، لأنّ الضمة من الواو"[150].

ويُشير بهؤلاء إلى " لغة بكر بن وائل وأُناس كثير من بني تميم"[151] ويبدو أنّ الميل إلى التخفيف يتفق مع طبيعة البداوة الّتي تجنح إلى السرعة في النطق لِما في ذلك من اختصار في الجهد الذي يبذله المتكلم، وفي زمن نطق الكلمة، لأنّ ظاهرة التخفيف تحول المقطع المفتوح إلى مقطع مقفل[152].

الخاتمة:

لقد تبين مما سبق أنّ منهج سيبويه في دراسة الأصوات اللّغوية أنّه قائم على الملاحظات الواقعيّة البعيدة عن الآراء الفرضيّة، فبدأ بوصف الأصّوات وصفاً دقيقاً من الحلق إلى الشفتين، وبيّن مخارجها على نحو يقترب كثيراً من الوصف العلمي الحديث، معتمداً في ذلك على كيفية نطق الأصوات، واستند في بيان صفات الأصوات إلى الأثر السّمعي الّذي يتركه الصّوت ولا أدل على ذلك من قوله في (باب الإشباع): " وهذا تحكمه لك المشافهة "[153].

وعلى الرغم من افتقار عصره إلى الوسائل العلميّة الّتي تعينه على تحديد وظيفة الوترين الصّوتيين، يُعدّ تعريفه للأصّوات المجهورة والأصّوات المهموسة مقبولاً لأنّه: " يعتمد ملاحظة طبيعة جريان تيار الهواء في القناة الصّوتيّة "[154]، والصفات الصّوتيّة الّتي دونها سيبويه جاءت متفقة مع طبيعة سماعه للصّوت في عصره، والنهج العلمي الحديث يقرر: " أنّ وظيفة اللّغوي تكمن في وصف اللّغة وفحص ظواهرها"[155].

أمّا منهجه الّذي اتّبعه في دراسة التشكيل الصّوتي، أي التعاملات الصّوتيّة في أثناء السياق وما تؤول إليه من تآلف أو تنافر بين الأصوات الّتي تتمحض عنها التغيرات الصّوتيّة، فقد أكدّ الدرس الصّوتي الحديث صحة ما ذهب إليه في كثير منها، إذ دوّن آراءه الواقعية في تأثير الصّوت الأقوى في الصّوت الأضعف ورغبة المتكلم في تيسير النطق عن طريق الابتعاد عن التتابعات الصّوتية والإشارة إلى قانون السرعة وتأثيره في طبيعة نطق أصوات معينة ضمن السياق الصّوتي، فهي عموماً دراسات وصفية تتفق في كثير من جوانبها مع ما يذهب إليه الدرس الصوتي الحديث[156].

---

[147]– الكتاب،3/370– 371.

[148]– دراسة الصّوت اللّغوي الحديث،331.

[149]– الكتاب، 3/581.

[150]– الكتاب، 4/114.

[151]– الكتاب، 4/113.

[152]– يُنظر الدراسات اللّهجية والصّوتية عند ابن جني، 220.

[153]– الكتاب، 4/202.

[154]– الدراسات الصّوتية في كتاب العين، 137.

[155]– أسس علم اللّغة، 136.

[156]– يُنظر الأصّوات اللّغوية، 204.

المصادر والمراجع:

1- إبراز المعاني في حرز الأماني، أبو شامة(ت،665هـ)،مطبعة الباني الحلبي،1349هـ.
2- الأصوات اللّغويّة،د. إبراهيم أنيس، دار هارون للطباعة والنشر، ط5، 1979م.
3- أضواء على الدراسات اللّغويّة المعاصرة، د. نايف خرما، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،1978م.
4- بحث في فونولوجيا اللّغة العربيّة، (أودي بتي)، مجلة الفكر العربي، بيروت، العددان(8-9)، كانون الثاني، 1979م.
5- تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، جورج مونين، ترجمة بدر الدين قاسم، مطبعة دمشق، 1972م.
6- التّطور اللّغويّ مظاهره وعلله وقوانينه، د. رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، ط1، القاهرة،1983م.
7- دراسة الصّوت اللّغويّ،د. احمد مختار عمر، مطابع سجل العرب،ط1، 1976م.
8- الدراسات الصّوتيّة في كتاب العين في ضوء علم اللّغة الحديث، موفق عليوي خضر، جامعة المستنصريّة، 1985م.
9- الدراسات اللّهجيّة و الصّوتيّة عند ابن جني،د. حسام النعيمي، دار الرشيد للنشر، بغداد،1980م.
10- دروس في علم أصوات العربيّة، (جان كانتينو)، ترجمة، صالح القرماوي، مركز الدراسات والبحوث، تونس، 1960م.
11- في الأصّوات اللّغويّة، دراسة في أصوات المدّ العربيّ، د. غالب المطلبي، دار الحريّة للطباعة، بغداد، 1984م.
12- في اللّهجات العربيّة، إبراهيم أنيس،ط2، مطبعة ألبان العرب،1952م.
13- الكتاب، سيبويه، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، عالم الكتب، بيروت، 1403هـ/1983م.
14- لحن العامة والتّطور اللّغوي، د. رمضان عبد التواب، دار المعارف بمصر،ط1، 1967م.
15- اللّغة بين المعياريّة والوصفيّة، د. تمام حسان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1976م.
16- مناهج البحث في اللّغة العربيّة، د.تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء،1979م.
17- المنهج الصّوتي للبنيّة العربيّة، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة،1980م.
18- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي،(ت، 1911هـ ، (د. ت).